قراءة في كتاب "مقاربات منهجية في فلسفة الدين"

قراءة د.غسان طه*

ثمة إشكالات عديدة يسوقها المؤلف في كتاب «مقاربات منهجية في فلسفة الدين**» بيد أن الهدف من طرح تلك الإشكالات لم يكن تحديد إجابات وردود مباشرة عليها، بمقدار ما كان تعبيد الطريق أمام التأسيس لأرضية علمية تنطوي على نحو من التعاطي المنهجي في طرح الإشكالات وتبويبها معرفياً وتحديد أنماط معالجتها.

«مقاربات منهجية في فلسفة الدين» عبارة عن دعوة جادة لكشف صدقية الإسلام وكونه حلقة أساسية في ظاهرة الدين التاريخية، إذ يذهب المؤلف إلى إثبات ذلك من خلال العمل وفق منهج فلسفي لفهم الدين، وأيضاً من خلال تحديد معالم المنظومة الفلسفية التي جاء بها الإسلام.

* باحث إسلامي من لبنان.
** صادر عن معهد المعارف الحكمية للدراسات الدينية والفلسفية للشيخ شفيق جرادي.

يستفاد من العنوان الذي وضعه المؤلف الشيخ شفيق جرادي لهذا الكتاب أن ثمة أكثر من مقاربة تدور حول موضوعات متنوعة، ولكنها بمجملها تختص بميدان معرفي شديد الارتباط بنطاق المعرفة التأملية التي تستند على طرح الإشكالات وإعمال العقل بالنظر والتحليل والمقاربة، والخروج باستنتاجات لإشكالات تطرح نفسها على الذهن البشري، ثم تؤول إلى تفسيرات قد تختلف أو تتطابق ولكنها تصدر عن عقول لمثل هذه المهمة، فغاصت في عبابها ناشدة ما يبدِّد قلقها المعرفي، وجذفت وراكمت الكثير من الإضافات إلى التراث المعرفي فاتحة الآفاق أمام إسهامات جديدة، تتفتق عنها أذهان من أغنتهم الدربة وبسطت حقول المعرفة أجنحتها لإلهام فكرهم.

وبين هذه الإسهامات هو هذا الكتاب الذي أراد له مؤلفه معالجة موضوعات في فلسفة الدين، وهي موضوعات شكَّلت لدى العاملين في هذا الحقل المعرفي ميداناً للمقاربة والتحليل.

جاءت هذه الموضوعات متضمنة في الكتاب على ثمانية فصول، حملت عناوين رئيسية، كالإسلام وفلسفة الدين، والإيمان بين الشك واليقين، والدين والعلمنة في نظام المعرفة والقيم، والعقل في جدلياته، وفلسفة الدين والإحيائية الإسلامية المعاصرة، ثم مقدمات منهجية للغة الظاهرة الدينية.

بالرغم من أن هذه الموضوعات قد توحي بعدم الارتباط التكاملي حول معالجة إشكالية واحدة فيما يقوم بينها من حسن حوار، لكنها ولارتباطها بموضوع معرفي واحد هو فلسفة الدين، تُفضي إلى التنبه نحو المباحث المتنوعة التي يتناولها هذا العلم.

على أية حال، ومن خلال إمعان النظر بطريقة مقاربة هذه الموضوعات كما جاء في الكتاب، فإنها توحي بقدرة المؤلف الاستيعابية للنتاجات السابقة والمستحدثة في هذا الميدان، ليس بطريقة الإحاطة وحسب؛ وإنما بما لديه من قابلية واستعداد وحضور في مناقشتها وإبراز مكامن التعثر والخلل وإبداء الملاحظات التي تنم عن تأمل وتحليل عميقين، وإبداء الرأي في آراء سبق أن طرحها فلاسفة كبار، أمثال: أميل دوركهايم، وإيمانويل كانط، وغيرهم من المفكرين الغربيين؛ ودون إهمال لما جاء في كتابات وإسهامات الفلاسفة المسلمين المعاصرين، أمثال: الطباطبائي

والسهروردي وغيرهم.

ينطلق الكتاب نحو معالجة إشكالية تنطوي على الكثير من الجدل والتعقيد، وهي إشكالية تمامية الدين وأوحدية الرسالة السماوية لدى أتباعها، على أنها الدين النهائي، فيما يقع غيرها تحت دائرة الهرطقة والبدعة، سواء كانت هذه الرسالات هي اليهودية أو المسيحية أو الإسلام.

فاليهودية ظلت تعتبر أن شعب إسرائيل هم شعب الله المختار، وأن ما سواهم أغيار يفقدون كل معنى، والمسيحية لدى أتباعها تتجسد في "شخص المسيح" كتجسد إلهي في اكتماله الأرقى والنهائي، ثم الدين الإسلامي الذي ارتضاه الله لعباده.

أما على مستوى الشكل، فيعتبر أن الأبحاث العلمية في فلسفة الدين والاجتماع الديني، بقيت أسيرة سياقاتها التاريخية، وحفلت بالكثير من التقليد في الطروحات السابقة وحملها إلى الدين اللاحق؛ وفي هذا المجال فالإسلام كدين أخير كان عرضة للقول: بأن تشريعاته كانت حلقة متماثلة مع التشريع اليهودي، وحملت بكثير من مفاصلها نظام القيم المسيحي مما شجع البعض على القول بأن: "الإسلام بدعة نصرانية" أو بأنه دين وضعي حمل كل حساسية التوثب نحو الشأن الزمني، أو إنه جاء ليتناسب مع ظروف الصحراء العربية في لحظتها التاريخية المعاشة؛ وبالتالي هو دين فاقد للمعنى الجذري التأسيسي والكمال.

رغم هذه الإشكالات التي يسوقها المؤلف، يبدو للوهلة الأولى أن القارئ سيعثر على إجابات تحدد الموقف في هذه الإشكالات عبر الرد المنهجي لإثبات عقم أو صحة بعضها، ولكنه سيعثر في طيات الصفحات اللاحقة على حقيقة مفادها: أن ما يدور في خلد المؤلف ليس الرد على هذه الإشكالات، بقدر ما يود تعبيد الطريق أمام التأسيس لأرضية علمية تنطوي على نحو في التعاطي المنهجي في مقاربة هذه الموضوعات، مع إشفاعها بدعوة لدراسة جادة لفلسفة الدين، لتكشف عن مدى صدقية كون الإسلام حلقة اجترارية في ظاهرة الدين التاريخية... أو مدى صحة فرادة هذا الإسلام في انبثاقيته الاستثنائية. وفي ذلك وجد أن لا بدَّ من الاحتياج إلى النظر في مجموعة من البحوث.

بينها تحديد معنى الدين أولاً، ونشأة الدين وبنيته، ثم المنهجية في قراءة الدين.

لم تأت هذه الموضوعات كعناوين فقط، وإنما سعى إلى إبراز ما تم فيها من

مقاربات لفلاسفة ومفكرين غربيين، وكما حفلت به الأدبيات الإسلامية في هذا الشأن. وفي خلال استعراضه لمعنى الدين لدى مفكري الغرب، يكشف عن مدى الاضطرابات التي خرجت بها هذه التعاريف؛ لكنه رغم ذلك يجد أن هذه التعاريف لم تخرج عن مسارها المعرفي، ومع ذلك فهي قابلة للنقاش، إذ يمكن إنشاء معالجة إسلامية معرفية موضوعية بحثية جادة للدين، تعبِّر عن فلسفة خاصة، نابعة من صميم القناعة الإسلامية دون إلصاق تهمة التضليل المعرفي أو عدم الجدية والموضوعية بحقها.

إن آراء الكتَّاب والمفكرين الغربيين بقدر ما كانت تشكل مع غيرها من مفكري وعلماء الإسلام هاجساً للإحاطة بمدى معرفي أوسع شمولية، ولذلك نجد الكتاب حفل بآراء عظماء الإسلام، خصوصاً في العصر الحديث، على غرار العلامة الطباطبائي صاحب "تفسير الميزان"، ثم مفكرين آخرين كالجرجاني ومحمد عبد الله الدراز في مقاربتهم لاستعمالات كلمة الدين. ودون أن يأخذ هذه الآراء كما هي يضعها بتفصيلاتها مبدياً ملاحظاته حولها التي وجد فيها أن هذه المقاربات تنطوي على الكثير من التصميم المسنود إلى الطريقة الأرسطية، والتي غالباً ما كانت على حساب المضامين والدلالات التي يحملها الدين في أنظومة الإسلام المعرفية، والتي تأتت من مستويين؛ أحدهما: داخلي أي: النصوصي كما جاء في القرآن الكريم، وثانيهما: خارجي المستوى، وهو ما قصد به إطلاق غير المسلمين على اعتقاداتهم اسم الدين.

فبغية الخروج من إطار التعميم الذي لاح له عند هؤلاء المفكرين، سعى إلى طرق باب البنيان المعرفي الذي أسس له العلامة الطباطبائي راصداً آراءه في هذا المضمار. فلقد وجد أن تعريف الدين لدى الطباطبائي الأكثر خصوصية في الجند الإسلامي الداخلي بأنه سلوك حياة يتوافق مع الكمال الأخروي، أو أن كل الأفكار والقوانين الموافقة لأحكام الباري، أي: التي أنزلها لعباده، وهي في موضع آخر صبغة الله، أي: الفطرة؛ أي أن الدين هو فطري لدى الإنسان، وكلما اقترب هذا الدين إلى فطرة الناس كلما كان هو الدين القيِّم، وأن الغاية بالنسبة إلى الإنسان الوصول إلى السبب الذي خلق له، والذي يعتبر طريق السعادة والكمال، وبما أن الفطرة تحمل قابلية الاختلاف كان الوحي والنبوة هما الهاديين إلى الكمال الإنساني، ومع أنه يجد

أن رأي الطباطبائي إذا ما تم ضمه إلى عمومية الأبعاد التي تقدم بها جملة من العلماء المسلمين ستشكلان معاً مفاصل حساسة في منظومة فلسفة الدين، ودون أن يترك الأمر معلّقاً يحاول ترسيخ أعمدة بناءات هذه المنظومة تنبع من توليفة بين هذه الآراء يصح معها مقاربة الأديان بعموميتها، ولكنه قبل إدراج هذه البناءات يحلو له الدخول في مناقشة لأفكار الطباطبائي واجداً فيها روافد استدمجت في مقاربة الدين، من حقول معرفية تتجاوز النص القرائي لناحية تأثره بأرسطو وبالعرفاء عند حديثه عن الكمال؛ لكن إثبات حالة التأثر هذه كانت تحتاج إلى إقامة المزيد من الحجج، وهو ما لم نجده في السطور اللاحقة، وربما لم يكن الهاجس الاستفاضة في هذه الفكرة بقدر ما توخى الإشارة إليها، لكن من جهة أخرى تبدو الأفكار اللاحقة أكثر إضاءة حين يفنِّد آراء الطباطبائي متناولاً ما انطوت عليه من مكامن تصلح لتفسير عمومية الدين، كفكرة التوحيد والفطرة التي تصلح لتكون محدداً من محددات الدين، دون أن تكون صالحة لفلسفة الدين الإسلامي وحسب؛ وإنما في تأكيد فعاليتها في إطار معرفي نقدي. ولذلك لا يجد حرجاً في الدعوة إلى نبذ الحذر من المرجعية الإسلامية لفلسفة الدين كمرجعية تتعايش مع روح النقد الحر.

بعد تعرضه لمباحث متنوعة بالعرض والتحليل والنقد، يضع عنواناً هو: "فلسفة الدين والإحيائية الإسلامية المعاصرة"، ليبين ما هو المقصود بهذا المبحث، ولا يفوتنا في هذا المجال أنه كان من الأفضل أن يأتي هذا العنوان في مهد الكتاب، بكونه العنوان الذي يحمله كتابه مقاربات منهجية في فلسفة الدين، فطبيعة التدرج المنهجي تقتضي ذلك، ولكانت قد وضعت القارئ أمام الإمساك بزمام المعنى الخاص الذي يقصده المؤلف، وليكون مرشداً دلالياً له حين الولوج إلى عموم المقاربات المتنوعة لموضوعات تنطوي على الكثير من الأهمية المعرفية الخاصة بهذا الحقل العلمي.

على أي حال، فالمقصود بفلسفة الدين كما يسوقه المؤلف هو البحث الحر في مناشئ ومقومات وطبيعة النظرة التي يحملها الدين، من موقع معرفي أقرب للتوصيف الحيادي منه للانحياز المؤدلج.

أما الإحيائية فيوضح بأن المقصود منها هو غير الذي كان سائداً في بعض الدراسات القديمة، أو ما اعتبره أدوارد تايلور كأول مرحلة من مراحل الدين؛ حين

اعتبر أن الطبيعة حية، فالإحيائية برأيه هي ما اشتغل عليه حملة من علماء المسلمين لجهة إحياء روح التدين في نفوس الناس، وليست هي الإبداع والتجديد والابتكار والخروج عن المألوف حصراً أو ممن أعملوا النقد كهدف، وحيدوا الدين عن الاستفهام النقدي.

أما الإسلامية فهي الدين الإسلامي كشرعة إلهية وكخاتمة للرسل، وكبيان التكاملي الذي عبر عنه الأنبياء عبر التاريخ ليستأدوا أمانتهم، فيما المعاصرة هي المرحلة التي شعر فيها المسلمون بإحباط عند هزيمة الكيان عند ملاقاة الغرب والإحساس بالتفارق الحضاري.

بعد التأسيس لهذه التعريفات وجد المؤلف أنه لا بدَّ من وضع توصيف لمنطلقات رؤية الإحيائية الإسلامية، من خلال إثارته لتساؤلات ما زالت مطروحة في نطاق البحث والاسترشاد، وتستوجب وضع الرؤى لمعالجة جملة من التحديات، فكيف يمكن التوفيق بين الدين "كثابت" والواقع "كمتغير"، ومن الحاكم في حال التعارض بين الدين والواقع، وهل يمكن تعميم نتائج تجربة دينية معينة على تجربة الإسلام؟

إن هذه التساؤلات تنطوي على أهمية ماثلة في واقعنا المعاش، ولكن يبقى أن الأكثر أهمية هو عدم إطلاقها معلقة برسم المفكرين، بل يلج إلى تجربة معاصرة تختزن الكثير من الغنى والعمق المعرفي ضمن فئتين من المفكرين؛ إحداهما: للإمام الخميني(قده) الذي أولى ضرورة لإعادة إيلاء العناية الخاصة بالنص الديني كمركز يستلهم منه العقل، وينضبط فيه بنزعة إحيائية تنطلق من مركزية النص على أساس مقتضيات الواقع لبناء آليات ومبانٍ اجتهادية أكثر دينامية تخرجه من الفردانية نحو التطلع للكيان، ثم قراءة الإسلام ككل متكامل، برغم ما فيه من تفريعات علمية كالفلسفة والفقه والعرفان ولعلم الكلام، وهذه الوحدة تتم عبر التدبر في نصوص القرآن، وتدبر آياته كحالة لتجربة روحية تحيي الجمود العقائدي بما يتجاوز كل حد من حدود الضيق المذهبي والهوى الذاتي، ليتسامى في تكامل الروح مع الحقيقة، والحقيقة مع الحياة والحياة مع الهداية.

أما التدبر الفقهي فيتم كما يعتبره الشهيد الصدر من خلال التعاطي مع لغة القرآن لا كمفردات جامدة، بل كدلالات تعين على الفهم المعرفي في نقل الأسئلة التي يثيرها الواقع المعاش لتطرح على القرآن والسنة، فيستفيد منها العقل في

جدلية الحياة بين النص والواقع اللامتناهي، وبين الثابت والمتغير السيال.

وبهذا تكون المدرسة الإحيائية - وفق هذا المنوال- أدخلت جملة من القواعد التي تبين أن الثابت الديني فيه من المرونة ما يكفل الحفاظ على أصل وجوده واستمراره وتجدده؛ كما أن الابتعاد عن الضيق والنظرة الإحيائية تمثلت بعلماء كبار وقفوا أمام الكثير من الإثارات المطروحة عبر نظرة تأصيلية، ولكن أغلبها ما زال مطروحاً أمام إعمال العقل والجهد العلمي كالنقاش حول الإسلام والقدمية...الإسلام والديمقراطية... الإسلام والانتخاب الشعبي، الإسلام والديمقراطية وأخرى حول جوهر الدين وأعراضه، ومعنى الإيمان والاعتقاد واليقين، والخلاص، إمكانيات الوفاق بين روح الأديان...

إن هذه الموضوعات براهنيتها تضع الإحيائية الإسلامية المسيحية أمام استحداث نموذج جديد في البحث، والفرز على غير قواعد علم الكلام واللاهوت وفق ما يسمى بفلسفة الدين كمنظار معرفي يحاكي الإنسان في إنسانيته والواقع بمقتضياته دون أن يهمِّش الدين، بل يعمل على إعادة الدور المركزي له، بعد أن أكلته غفلة الجاهلين وسلطة المؤسسات الدينية بجمودها القاتل في كثير من الأحيان.

وفيما تبرز الفصول ما انطوت عليه مضامينها من إفراد للآراء، خصوصاً حين تعقد لواء المقارنة لمفاهيم جرت مقاربتها في أدبيات إسلامية وأخرى غربية، والغوص فيها للخروج باستنتاجات متوالفة أو متمايزة عنها.

ثمة فصل آخر جرى التعرض فيه للغة الظاهرة الدينية، وهو مبحث يكتسب أهميته من أن فلسفة الدين - كميدان معرفي- تمثل النصوص الدينية إحدى موارد الدراسة، وهي تستوجب منهجية خاصة تقوم بداية على فقه اللغة وتحديد الحقول الدلالية لمفرداتها.

ولذلك سعى المؤلف إلى طرق هذا الباب محاولاً استكشاف ما زخرت به كتابات المهتمين بهذا الشأن، للوقوف على الاهتمامات الحقلية لهذه الجنبة العلمية وتصنيفاتها للأشكال التعبيرية للمعنى، والتي تنتظم تحت اسم أعم هو اللغة لكافة تفرعاتها؛ كلغة القول ولغة الكتابة ولغة العقل والإشارات، وما تحمله هذه الأشكال من اتساقات في التعبير المضموني، المجازي والكنى والحقيقي والتمثيلي وغير ذلك.

استند على ما جاءت به مقاربات للجرجاني وابن جني حول اللغة كمعنى لا حدَّ

لمداها، على غرار العبارة الواحدة لمسميات عدّة أو عدة كلمات لمعنى واحد أو صعوبة العبارة في تأدية معنى ما أو لجهة القول بإنسانية اللغة، والمعاني المؤدّاة من خارج اللسان؛ وكل ذلك جعله يفرض فتح المجال واسعاً أمام ميادين أخرى في البحث للغوي، وبناء علاقة لفهمه مع مقاربات ومقارنات لبقية أنواع اللغة اللفظية غير العربية.

يحضرنا القول في هذا المجال: إن المؤلف يتحسس الأهمية المنهجية لعقد المقارنات مع أنواع اللغات غير العربية؛ لكنه مع ذلك يخلو هذا المبحث من إيراد شواهد لغوية ومقاربات على نحو ما تم ذكره، فهناك الكثير من الآراء المتخصصة في الحقل الدلالي للغة لدى المفكرين الغربيين، أمثال: دي سوسير وعلماء اللغة الذين أرسوا علماً خاصاً للألسنية يفتح المجال في الباب واسعاً أمام الاستفادة من نتاجات هذا العلم.

على أي حال، رغم ذلك، فلم يخلُ المبحث من طرح جملة من الإشكالات التي تضفي عليه ما يؤكد على الجهد المبذول من قبل المؤلف، وقدرته على الإحاطة بهذا الموضوع كعلاقة اللغة بالثقافات، أو علاقتها مع الذات أو النفس، أو مع الاعتقادات والماورائيات فضلاً عن استعراضه للعديد من مناهج اللغة كالمنهج الوصفي، والمعياري، والتاريخي والتحويلي وما تؤسس له هذه المناهج في الفهم والمقاربات التوليدية والتحويلية والتطورية والمقارنة لظاهرة من ظواهر الفكر الإنساني.

إن كل ما ساقه المؤلف من مقدمات حول هذا المبحث هو فعلي إرادي لمنهجية بحثية هادفة وراء كل عنوان، بالوصول إلى خلاصات حول إشكالية تستوجب إبداء الرأي حولها، ولكن بعد إلقاء المزيد حولها من الإضاءة والبلورة.

ولذلك نجده خلص أن للظاهرة الدينية لغة، ونسبة اللغة لهذه الظاهرة هو ما اصطلح عليه بلغة الدين.

إن لغة الدين إنما تتعلق بالكلام الصادر عن الله سبحانه، أما اللغة الظاهرة الدينية هي حين يصير الله سبحانه فصلاً من فصول الدين وموضوعاً لمحمولات تتعلق بوجوده أو بصفاته وأفعاله ومقاصده، كما أن الظاهرة الدينية تتحكم إلى صيغ التصورات الذهنية المولِّدة للغة الحاكية عن الدين، وهي تمثل أيضاً التجربة الدينية للفرد أو الجماعة، ولذلك فما ساد من محاولات تفسيرية.

ولذلك فاللغة تعبر عن طبيعة فهمها للموضوع دون أن تمتلك القدرة أو الحق في التعبير عن نفس ذات الموضوع، وهذا ما يفسر منشأ التكثر على مستوى الكتب، وإذ يفرِّق بين مفردات القرآن الكريم على كونها كلام الله المنزل على النبي محمد (ص) خلافاً للكتب السماوية.

على أية حالة، إن إطلاق الكتابات تسمية لغة الظاهرة الدينية خير من تسميتها في لغة الدين، ورغم تفضيله لهذه التسمية يجد المؤلف ومن خلال مراجعات ما سبق أن كتب في هذا المجال، فإن لغة الظاهرة الدينية هي دوماً لغة محملة بجملة من المواقف الفلسفية والآليات المعرفية المسبقة؛ لذا ليست هي محايدة، بل هي متعددة، وبالتالي فإن تسميتها باللغة الدينية فيها الكثير من التسامح، ويمكن التمييز بين ثلاثة مستويات من اللغة: لغة كلام الدين- لغة الكتب الدينية- ولغة الظاهرة الدينية.

ختاماً، يمكن القول: إن الدين كاعتقاد وكمنهج حياة شكل مورداً للدراسة منذ القدم، وقد حفل التراث المعرفي بالكثير من الآراء والإسهامات، والتي كانت انعكاساً لآليات ومناهج متنوعة، وساد فيما بينهما الكثير من التنوع والتشابه والاختلاف، ورغم ذلك تبقى الموضوعات التي تتعلق بآليات ومناهج فهم الدين والعقل والإيمان وماهية الدين وغيرها حقلاً لفلسفة الدين، يستوجب المزيد من اكتشاف ما يمكن أن تتلاقى فيه الأديان بعد استكناه جوهر الدين وغايته.

ولا يفوتنا في هذا المجال العودة نحو التذكير بأن هذا الكتاب ينتمي إلى ميدان معرفي يقع في دائرة فلسفة الدين أو الفكر الديني، وهو ليس كتاباً في السيرة أو التاريخ أو السياسة؛ لذا ينبغي للانكباب على قراءته أن يكون القارئ قد أعطى نفسه من وجبة طعام دسمة من الحلوى مؤقتاً تسهيلاً للفهم وللتعمق، ولا يخلو ذلك من متعة لكونه يشكِّل منهلاً للغوص في عالم الآراء والأفكار التي شغلت وما زالت الفكر البشري، وتطرق باب الولوج إلى إجابات متيسرة حولها.